صورة من مدينتي « فاس »

في الطريق إلى « القرويين »

بقلم الدكتور شكري فيصل

« الى الاخوة العاتبين في دمشق »

— ١ —

حين قطعت الطريق في المرة الاولى كنت ادافع الوانا من الاحساس الاليم بهذا الضيق الذي ينقطع له النفس ، كنت برما بكل ما حولي ، فقد كانت الازقة ضيقة شديدة الضيق ، كقلب منافق وعقل جهول عات .. وكانت متعرجة ملتوية كما يكون هذا الالتواء والتعرج الذي تواجه في خلق بعض الكائنات بين عهد وعهد وحكم وحكم .. كان يقترب طرفاها من هنا وهناك فلا يكاد يتسع ما بينهما لثلاثة ، ايدي بعضهم في ايدي بعض ، فاذا هم مضطرون ان يكون احدهم وراء صاحبيه .

كان النور ينسرب على استحياء ، ويلقي اشعته الباهتة كما لو كانت ظلال اشعة ، او بسمة حقود يتكلف استقبالك من وراء مكتب ضخم .. كانت كانما هي في اولى مراحلها الى الذبول فالخمود فالموت .

وكانت من هذه الطرق المنحدرة الصاعدة التي يعيا بها ابن الاربعين والتي لا بد له فيها من ان يثبت أقدامه كلما قطع بعض الخطا ، وان يتحسس مواضعها كلما تقدمت به المسافة .

لم تكن نظيفة تغري ، ولم تكن وسخة تنفر .. ولكن كان فيها ما يبعث على الاطمئنان حين كنت تسمع ، وانت تمضي ، هذا الصوت الثرثار من وراء جدار ، صوت الماء. كلما قاربت فتحة من هذه الفتحات في هذه الجدران ، يتنزل من بيت الى بيت ، ويجري من حائط الى حائط ، في خرير مؤنس ، لطيف .

كانت الطريق الضيقة تدفع الى الطريق الضيقة ، والزقاق المعوج يسوق الى الزقاق المعوج .. وكان كل ما بين يدي جدران مصمتة لا تكاد تنفرج عن نافذة او باب .. وتمضي في خط طويل لا يعرف الاستقامة ولا الوضوح ، ولا الدماثة ولا اللين .. وانما هو اعوجاج باهت ، وفتحات مخوفة ، وصوى منطفئة ، ومسالك لا تعرف اليها الدماثة ولا اللين السبيل .

— ٢ —

كنت اتساءل وصديقي يستبقني امامي : ما وراء ذلك ؟ .. كان « القرويين » مقصدي .. وكانت امجاد القرويين هي التي تضيء لي طريقي .. هي التي تذلله حين يصعب ، وتسيغه حين يشق .. كانت هي التي تجعل الاربعين عاما او تزيد على كتفي كرة ادفعها بين قدمي كما يدفع اللاعب الكرة قادرا عليها متمكنا منها .. كانت العربية التي حمى جامع القرويين تبعث عندي مثل الذي بعثته امي في صدري حين طوقت عنقي وألقت بكل مواجدها ومحبتها قبلة على جبيني ووصاة في اذني : الا تنسى العهد .. عهد الله .. كذلك كانت هذه العربية قبلة وعهدا ، لولاها ما مضيت ، ما قطعت كل هذه الدقائق الاربعين منحدرا ، منعرجا ، مصعدا .. بل ما قطعت كل هذه الملايين من دمشق الى هنا ، ان « ظهر المهراز » في موكب من غربة النفس ، وفرقة الاهل ، ولذع الحنين ، واحاديث القلب التي لا تنتهي .

وكتمت ما في نفسي ، واشفقت على الملايين التي حرمها هذا الاخطبوط الخبيث الذي سماه الناس الاستعمار — وما هو منه بشيء — حتى نعمة الطريق الممهدة .. ونأت مني ، من اعماقي ، صيحة .. هل اقول لكم .. كانت لعنة على كل اولئك الذين خنقونا احياء وراء الاسوار .

— ٣ —

وكذلك قطع بي صاحبي اكثر الطريق وانا نهب كل هذه المشاعر المتناقضات نفحة من شرق ، ولفحة من غرب .. لم اكن ارى بعيني شيئا ذا بال ولكن كان يشع من امامي الوان من هذه الالوان المنفصلات المتداخلات : اللون البهيج من الماضي ، واللون الكئيب من الحاضر ، واللون الذي يتفجر ضياء في المستقبل . بسمات من وراء الدموع ، وبرد وسلام في جذوات النار ، وحضارة من غير « استعمار » في قلب هذا « الاستعمار » الذي لا حضارة معه .

لم تكن طريقي وحدها هي التي لا تستقر بي ، وانما كنت انا كذلك الذي لا يدركه استقرار .. كل حجر في هذه الزوايا ، متآكل متهدم ، كان يلقي الي بحديث . يكاد يقترب مني يقص علي قصه الذين أوذوا والذين اضطهدوا

.. قصة الذين عذبوا والذين استشهدوا .. حكاية الذين كان يساق ابناؤهم الى « الفرق الاجنبية » ثم لا يعرفون اين هم .. كنت اجدني كما لو كنت اندفع استمع الى هذه الاحاديث .. ما فيكم من ينكر علي .. كان في عيني على كل حجر صورة ، وفي كل صورة مأساة ، وفي كل مأساة خيوط معقدة كانما هي عبث اقدار ..

من اجل ذلك كنت امضي ولا اتقدم .. كان صاحبي شديد التهذيب .. ولذلك كان لا يخطو امامي خطوتين حتى يضطر الى ان يعود الى ورائه خطوة ، كأنما يتفقدني .. كان ، اول الطريق ، لا يقول شيئا ، ولكنه اخذ بعد ذلك يسألني عن الذي بي .. وعلى شيء كثير من استحياء قال لي ذات مرة وقد اعياه قصوري : الا تعجل .. يا صديقي ان عقودا من السنين بأهوالها من امامي ، منذ كان اول جندي فرنسي على هذه الارض .. ان ارواحا خضراء من الجنة اعرفها ولا اتبينها ، استشهدت هنا وهناك ، تلتمع في خاطري .

ومضيت متثاقلا اتمنى لو زوي لي الطريق ، فبلغت « القرويين » من غير طويل طريق .

— ٤ —

واغلب الظن ان صديقي قرأ الذي يرتسم على وجهي .. عرف شيئا مما يحوك في صدري حين انعطف بي مرة جديدة في هذه السلسلة الطويلة من الازقة .. ولكنها لم تكن ، هذه المرة ، حلقة جديدة في هذه السلسلة ، وانما كانت قطعا لها ، بترا لها .. كانت كانما هي افلات من الرصد الذي ضرب علينا منذ اجتزت « بوابة ابي الجنود »، وفك لمغاليق هذه الطلاسم التي تلبستنا .. فقد احسست شعاعا من ضوء جديد ، ونسمة من روح ما عهدتها قبل .. اتراها واحدة من النسمات التي يحسها هذا الانسان — البطل الذي يعمل في المنجم حين يبدأ يخرج من منجمه ؟!.

ولكن شعاع الضوء كان يشتد ويزكو ، خطوة بعد خطوة ، كان يؤول حزمة ضوء حتى ليوشك ان يجهر العين بعد الظلام الذي اعشاها .. وادركتني روح انس ، واختفت من امام عيني جدران مبللة ، معتمة ، لتبدد شرائح الخشب الخمري .. في مثل لون فتاة عربية الاصول تعيش في اسبانيا .. تنساب من هنا ، وتنتثر من هناك .. ثم تجتمع بعد ذلك في مفاجأة سريعة ، في بوابة ضخمة عملاقة ، كانما هي جني برز من اعماق الظلمة ، وانتصب بين الارض والسماء في وسط اكوام من النمل الذي يزحف .. ومن وراء الباب كان من يقول ، في صوت فيه كل اخلاق المسلم ونبل العربي : تفضل .

هل اقول لكم اني دهشت .. هل اقول اني صعقت .. ولكن المشاهد تنداح في مثل سرعة البرق ، فاذا انا اسير لها لا اكاد افلت من واحدة حتى اقع في كف ناعمة اخرى .. لم يكن من سبيل الى يقظة اثوب فيها الى نفسي ، فقد اصبحت نفسي نهبا موزعا بين كل الذي ترى:

— ٥ —

من وراء البوابة كان يسترسل مدخل البيت ، وكان يدخر لك من الزخرفة الهادئة ما يزيح عنك عتمة المزالق ، ويهيئك لهذا الذي يفجؤك بعد من انوار السماء ، والنسق الماء ، واناقة البناء ، وروعة الفن .. وكأنما كانت هذه المصطبة الرخامية المصقولة اغراء بشيء من الراحة ، يتكئ اليها المجهد ويلقي عليها بكل ما يحمل من اوزار الطريق .

كان المدخل في جملته بسمة اللقاء الاولى .. ووراء البسمة كل الفرحة العميقة التي يتيحها لك مضيف من شباب العرب الذين يحملون فضائل اربعة عشر قرنا كلها سمح نبيل ، وتقاليد عشرين قرنا كلها كريم اصيل ..

واسلم المدخل في مثل بسمته الاولى الى صحن الدار .. يا فرحة العين ، ماذا ترى .. ونسيت كل شيء كان قبل : نسيت الطريق الملتوية بكل شتاتها وضيقها ، انسيت ظلمتها ورطوبتها ، وانتسخ من نفسي كل ما حسبته عيبا من عيوبها ، حتى لم يبق منها الا معنى انها الطريق التي تقود الى هذا النعيم .

— ٦ —

وذهلت مرة اخرى حتى لم اكد اعي .. ان حضارتنا استطاعت ان تحتمي من كل هذه الاوزار التي صبها الاستعمار ظلمات بعضها وراء بعض .. ولكن النور لم ينطفىء ، بل ظل يستعصي عليها ، حتى كان الفجر ، فاذا

صدر حديثا :

كلمات فلسطينية

اول ديوان للشاعر الطليعي

حسن النجمي

منشورات دار الاداب

الثمن ٢٠٠ ق. ل.

الخيط الواحد منه ـ على ضآلته ـ يغتال كل هذا السواد الذي ملأ الدنيا من الافق الى الافق .

لم اكد اعي .. فقد كان الذي امام عيني نبع ثر متدفق ، من لوحات رائعات ، بعضها فوق بعض ، وبعضها وراء بعض ، وبعضها الى جانب بعض ، من هذا الفن الزخرفي الانيق الذي عاش في الاندلس وعاش في المغرب ليعبر عن الذات العربية في بعض فيضها من الابداع .

الارض الفسيحة ، ارض الدار !.. لا .. انك قد تلقاها في كثير من الابنية والبيوت .. ثم هي تنفسح ولكنها تتناهى ، وتمتد ولكنها تقف ، ويحدها عائق من هنا او هناك فاذا هي هذا الحيز المتحيز .. ولكنك مع هذه النقوش والزخارف والاعمدة في آفاق فسيحة لا تحد ولا تتناهى ، ليس لها المدى الذي تقف عنده ، ولا الغاية التي تتكسر عندها ، ولا الحيز الذي تنشد اليه .. آفاق من دنياك التي تعيش فيها ومن دنيا اخرة تعيش معك .. آفاق من الحفر والنقش والتلوين والتوريق ، فيها هذا التجميع لليد العربية الصناع المعطاء ، والوجه العربي الدافىء المتهلل ، والروح المسلمة التي لا تحب ان تتناهى ... آفاق مختلفات ملتئمات ، منفصلات متصلات ، متباعدات متقاربات .. بعضها من هذا الخط الذي يستقيم او ينكسر ، وبعضها من هذا اللون الذي يثور او يهدأ ، وبعضها من هذا الشكل الذي ينسدل فينطلق ، او يستدير فينطوي ، او ينسدل بعضه وينطوي بعضه ، فاذا هو متاهة .. ولكنها متاهة هادية .. تغيب فيها عن هذا الواقع الذي تقف عليه ، لتهتدي الى ما وراء الواقع الذي تتطلع اليه بكل ما فيه من دنى فساح وآماد متباعدة .

ـ ٧ ـ

الخطوط الحلوة تمتد وتمتد .. الخط من الخط ، والخط الى جانب الخط ومن حوله ، فاذا الشكل الفاتن .. والشكل ومن ورائه الشكل ومن فوقه ، فاذا هذه المساهمة المتوهجة المتبرجة .. والمساحة تقود الى المساحة ، تنبع منها وتنداح من اطرافها فاذا مساحات اخرى يجري وراءها الطرف .. يعدو لا يتعثر ، ولكنه لا يكاد يدركها .. يحاول ان يقف بصره على جزء منها فاذا هي تتملكه : تقيده وتطلقه في آن ، في تناغم عجيب ، وفي مؤالفة رائعة .. تطلقه واحدة من هذه المساحات فيغادرها ، ثم لا يلبث ان يجد المساحة الاخرى تقيده فاذا هو اسير لها ، لا يكاد يفلت حتى يقع ، ولا يكاد يظن انه جاز حتى يجد انه وقف .. اتراهم هؤلاء الذين ابدعوا كل هذه الزخارف كانوا ينبئون عن الذي في اعماقهم من امر الانسان : كلما بدا له انه فتح مغلاقا وجد ان من امامه المغاليق .. وكلما نظر في سماء قادته الى سماوات ، وكلما ارتقى ذروة بدت له الذرى .. حتى يتعلم كيف يعيش : قدماه على الارض وقلبه في المطلق ، وكيف يعيش كيانه في المشخص وذهنه في المجرد ، وكيف يفلت من اسار الواقع ليسمو فوقه ، وينبت منه ليستعلي عليه ، وتظل حياته هذا التطلع الدائم الى المثل الاعلى !؟..

ـ ٨ ـ

ووجدتني وكأنما انسيت كل هذا الذي كان قبل قليل حولي .. كان هنالك من اخذني حقا .. اي يد تلك ؟ اني لم ارها .. اي قوة ؟ انها لم تستبن لي .. ولكنها غيبت كل شيء عني لتصوغ لي وجودا اخر صافيا شفافا ، كأنما نسجته اصابع ملائكية ، مضيئة ، ساحرة ، كانت تتحرك في غير الحركة التي نعرف ، وتتحدث في غير اللغة التي نسمع ، وتضيء بغير النور الذي نستضيء .. كل الذي كنت احسه من دنياكم بين اللحظة واللحظة نفحة باردة على خدي من هذا العمود المتوج الذي القيت بثقلي عليه .. أكان لي حقا شيء من ثقل في تلك اللحظات المشعة النادرة .. اكان لي هذا الكيان الذي اعرفه .. اكنت انا انا ، ذاك الذي ضاق بكل شيء ثم استدار خلقا اخر لهجا بكل شيء ، مبتهجا بكل شيء ، منطلقا مع كل شيء .. توهج الالوان يغذيه ، يكاد يبعث فيه الدفء .. حركة الخط في تمدده أو في تكسره تستبيه ، لتكاد تسكره .. زخرفة الشكل تأخذه ، تقطع كل صلة بينه وبين ماضيه ، وبينه وبين وجوده البشري الضيق ، الا ما يكون من اطياف ترده الى هذا الماضي او الى هذا الوجود ، فيصحو ويثمل ، ويذكر وينسى ، ويدنو وينأى ، ويبتعد ويقترب ، ويشهد ويغيب ، ويأخذ ويدع ، ويعيش في هذه الدورة من الاستحالات ، وبالذي يكون له عنها من مدركات ، بعضها اثر بعض ، وكأنما كل واحدة منها برزخ من هذه البرازخ المتصلة ، تصفيه من كل اوضاره ، وتنقيه من كل اوزاره ، وتخليه من كل علائقه ، وتطلقه من كل عوائقه ، ثم تحليه بالحلية المثلى ..

ـ ٩ ـ

اجل لم تكن ساكنة هذه النقوش والزخارف ولم تكن صامتة .. ما اشد ضلال احساسنا البدائي الفج حين يخيل الينا ، في اعقاب النظرة الاولى ، اننا امام حيز ، صامت ، ساكن .. فما كان هنالك هذا الحيز .. انسيت حدود المكان ، وعبثا حاولت ان اعثر على بداية او نهاية فتلك مفاهيم بدت لي وكأني ما عرفتها ولا فتشت بها .. وما كان هنالك هذا السكون ، فمن قلب هذا السكون كانت تنداح هذه الحركة المتلألئة التي تشبه ان تكون ظلال قافلة متصلة لا تني تتحرك على ارض منبسطة مستوية ، الحداء من حولها تسابيح ، والاجراس غناء ، والخطى استراق .. وما كان هنالك هذا الصمت ، وانما كان ينبع حديث كما يتدفق الماء على شفاه الينابيع .. حديث كل انحناءة خط او استقامته ، مع استدارته وانطلاقته ، مع انقطاعه

رحيل بلا تذكرة

فرغ القلب من الحزن العظيم
وهوى الحلم على احداقنا ليل هشيم
ووصلنا لقرار التجربه
كل ما صدناه من مستنقع الوهم خيالات عقيم
وهفونا للرحيل

***

نحن زينا على البعد مواعيد الحياه
ونصبنا حبنا جسرا الى ارض المتاه
وجعلنا كل انسان اله
فاذا الارض التي نسكنها ارض الخطاه
سكنوها منذ قابيل وما زالوا رعاه
قد حسبنا ان صدق الكلمات
سيعيد البرء للوجه الذي ارهقه حمل الرفات
كل ما قلناه ما مس سوى لحم عقيم
وهوى ثم على الارض كجمع الحشرات

***

اه ما احلى الرحيل
لم نعد نقدر ان نحمل ارهاصات جيل
لم نعد نقدر حتى ان نغني حلمنا
واكتشفنا فجأة ان الذي نرجوه شيء مستحيل

***

اه ما احلى الرحيل
لم يعد شيء هنا يمنحنا بعض الرضا
لم نعد نحمل الا قرفا يغزو الفضا
وانتظار مبهم يحملنا في جوفه يوما
ويلقينا الى السجن القديم
وطموح اجوف نجتره كالقات ينسينا السنين
لم يعد يربطنا بالتربة جذر من حنين

***

اه ما احلى الرحيل
دون ذكرى ان تخفق في عينيّ اجراس الوداع
دون اسم ، دون ان احمل بعضا من متاع
اين تمضي ؟!
لست ادري ، حسب قلبي انني منفلت في ..
... مدة الافق المشاع
ما الذي تبغيه ؟
لا تسأل .. فقد اضنى جراحاتي الصراع
غدت الافكار شيئا مرعبا .. شيئا مريضا .. كالقناع
لم اعد اطلب ان اغدو للكون شراع
لم اعد اطلب للنفس رضا
كل ما أرجوه ان اسرق لي بعض عزاء

حماه

ماجد حكواتي

وتولده ، مع انفصاله واتصاله .. حديث اصفى من كل حديث ، واعمق من كل حديث ، واغنى من كل حديث .. ما نطق به فم ولا سمعت به اذن ، وانما كنت ترق فتحسه ، وتشف فتسمعه ، وتتخلى عن كل شيء فتصغي اليه ، وتتعرى من كل شيء فتندمج فيه .. فاذا هو همس من همس السماء .

— ١٠ —

يا صديقي .. لن اثاقل حين تقودني مرة اخرى في هذه المسالك .. لن تراني احمل قدمي ، اجرهما .. لقد منحني هذا البيت الذي وقفتني عليه قوة لا توصف .. لم تعد هذه مسالك في طريقي وانما صارت معارج لروحي .. سأعدو وسأعدو ، في فتوة شاب ، وفي قلب متطلع ، وفي لهفة مشتاق .. لاني اجد هنا مشرقنا ومغربنا .. رسالتنا وحركتنا ، اجد الفردوس المفقود والفردوس الموعود .. لقد ارادوا ان يخنقوا المدينة وراء السور في قمقم من الظلم والارهاق والكبت والتجويع .. ولكن المدينة ، مدينة القرويين ، عرفت كيف تملك ما كان خارج السور وكيف تحتفظ بما كان لها داخل السور وكيف تطيح بما بينهما من سدود وقيود .. انها « بالقرويين » كسبت المعركة مرتين .. حفظت اصالتها ، وما ونت عن ان تلحق بالركب ..

اتراها ستظل قادرة على هذا التوازن اللبق اللبيب .. ام هو هدير موج جارف جديد ، هدير استعمار مقنع في هذه المرة يريد ان يلهي الناس بالحياة وان يستلبهم المعاقل والمثل والقيم .. اهو نقلة من الاستعمار الى « زندقة » جديدة ؟.

السلامة .. السلامة .. يا « مشرقنا » مما يلي الاطلسي .

فاس « ظهر المهراز »

كلية الاداب والعلوم الانسانية

شكري فيصل